الغيرة التي بدون معرفة

"لأني أشهد لهم أن فيهم غيرة الله إلا أنها ليست عن معرفة"

لم يختبر أحدٌ خبرة الألم التي كانت عند بولس بسبب عدم إيمان بني جنسه بالمسيح وتعلّقِهم بالصيغ القديمة للدّين، التي كانت من أجل أن تقودهم إلى المسيح: "لأنّ غاية الناموس هي المسيح للبرّ لكلّ مَن يؤمن" (رو ١٠، ٤). يتألّم بولس على بني جنسه الذين غاروا غيرةً كبيرة لكنّها كانت دون معرفة. وهل يستطيع أحدٌ أن يتكلّم عن خبرة كهذه مثل بولس. لقد غار بولس ضدّ المسيحيّين بدون معرفة، لكنّه عاد واختبر الغيرةَ الحقيقيّة من أجل المسيح، فعرف عن تجربة عميقة وشخصيّة مقدار هول الخسارة في الغيرة التي بدون معرفة.

أجمل ما في الإنسان هي حرارتُه وكذلك حسُّه المرهف واندفاعه. إنّ كلّ ذلك صورٌ عن حيويّة صادقة في داخله. الغيرة والاتّقاد تدلّان على غليان الحياة وعنفوانها. لكن المعيار في الغيرة ليس اتقادَها إنّما طهارتَها وصحّة دوافعها. فالغيرة هي طاقة عند الإنسان ومظهر من مظاهر حبّه وفهمه للحياة. هناك غيرة من دوافع الحبّ النزيه، وهناك غيرة تحرّكها دوافع الحبّ الدنيء. إنّ طاقة الحياة هذه تكون طاهرة حين تحرّكها الدوافعُ من أجل الآخر، وقد تكون فاسدة حين تحرّكها الدوافع الذاتيّة.

"الغيرة بدون معرفة" تتضمّن أمرَين لا تعرفهما الغيرة الحقيقيّة. فبالإضافة إلى التعلّق بـ "إيديولوجيّة" ما، تستخدم الغيرةُ التي بدون معرفة "تبرير الواسطة" لنيل الغاية أوّلاً، وتلجأ للعنف لتحقيق ما تسمّيه النصر ثانياً. ومن هذَين الأمرَين الغيرةُ الصالحة براء.

"الأفضل أن يموت واحدٌ عن الشعب"، قال رئيس الكهنة مبرّراً استخدام الظلم من أجل المصلحة العامّة! "الغيورون" بدون معرفة لا يهمّهم "الحقّ" وإنّما "النصر"! لذلك حين –برأيهم- لا يعرفُ اللهُ تدبير الأمور يلجؤون هم إلى حنكتهم، ولا يقبلون نهاية إلاّ النصر على "أعدائهم" باسم نصر الحقّ الإلهي. "الغيورون" (بدون معرفة) لا يقبلون أن يصيروا ضحيّة لذلك يضحّون بمبادئهم أو بجزء منها لكي يحيوا بفرح غلبتهم الذاتيّة. إنّ عالمنا عالمٌ لا ينصرُ الحقيقةَ دائماً. وإنّ يسوع أثمن شهيد دفعته الحقيقة ثمناً لغلبة

الشرّ أحياناً على الخير. لذلك يطيعُ الغيورون وصايا الله كلّها بدقّة كبيرة، ولكن هذه أيضاً تخضع لهم وتطيعهم، حين يختارون منها ما هو للاستثناء. فيبيحون القتل مثلاً من أجل الحقّ والمصلحة العامّة، أو يستبيحون الكذب من أجل القضيّة التي يدافعون عنها بل يحيون عليها... وهكذا "تبرّر الغايةُ الواسطة"! بالنهاية "الغيورون" هم، بأعين أنفسهم، جماعة "أدرى من الله" في تنفيذ الوصايا الإلهيّة، فيُبطلون منها القسم الذي يرونه في لحظة ما لا يحقّق "نصرهم". هؤلاء الغيورون لا يعرفون أنّ الحقّ يطلب شهداءَ للحقيقة أحياناً وليس فقط مجاهدين! لقد صمَتَ يسوعُ أمام بيلاطس، ولم يتنازل عن الطاعة الكاملة للآب! لم يستثنِ يسوع أيّة وصيّة لكي ينجح في بقيّة الوصايا، لقد كانت طاعته كاملة ودائمة لله. لهذا علّم كلّ مَن يريد أن يتبعه (في خدمة الحقّ) أن يحمل صليبه وليس أغصان الظفر؛ وأوصى تلاميذه أن يضحّوا بكلّ شيء، حتّى بحياتهم ذاتها (متى ١٦، ٢٤-٢٥). إنّ الغيرة (بدون معرفة) من أجل البرّ هي إفساد لمعنى البرّ ذاته.

ولا تتوانى "الغيرة التي بدون معرفة" عن استخدام العنف، مع أنّ الحقّ والسلام لا ينفصلان: "الحقّ والسلام تلاقيا". فتستخدم هذه الغيرة ما هو عكس الحقّ لإقامة الحقّ! والحقّ أنّ هؤلاء الغيورين يُقِيمون ذواتهم وليس الحقيقة! لقد غار اليهود جداً بسبب العجائب التي قام بها الرسل بعد قيامة يسوع ولجؤوا إلى سجنهم (العنف) (أع ٥، ١٧-١٨). وكذلك الأمر، راح اليهود يقاومون ويحرّفون ويفترون على بشارة بولس عندما غاروا من اجتماع كلّ أهل أنطاكية بيسيدية ليسمعوا كلمة الله (أع ١٣، ٤٤-٤٥).

لقد أدان يسوع ابنَي الرعد عندما طلبا منه استخدام العنف من أجل البشارة (مر ٣، ١٧ لو ٩، ٤٥)؛ ورفض أن يقاوم أعداءه بالسلاح (متى ٢٦، ٥١-٥٣). إنّ الغيرة الطاهرة لا تفضّل "الحقيقة" على "الإنسان"! لذلك لا تسلك إلاّ بالسّلام والحوار والاحترام، لأنّ أعظم ما عندها هو الإنسان ولو كان مخطئاً. على العكس علّمنا يسوع أن "نغصب" ونعنّف ذواتنا فقط، وليس الآخرين: "ملكوت الله يُغتصب اغتصاباً"، وملكوت الله هو في داخلنا (متى ١١، ١٢).

لقد غار بولس في البداية غيرةً بدون معرفة، فأسر المسيحيّين وساهم في رجم استفانوس، وهو يقول عن ذاته آنذاك: "من جهة الغيرة مضطهد للكنيسة" (فل ٣، ٦). ولكنّه لما غار بالحقّ عرف الأتعاب طريقاً لتحقيق مناه، وصارت غيرته سباقاً في خدمة المسيح (فل ٣، ١٢-١٤) وصارت له: "غيرة كثيرة لأجلكم" (كول ٤، ١٣).

لهذا لا يتردّد بولس الذي اختبر نوعَي الغيرة، التي بدون معرفة والتـي بالمـسيح، أن يقـول "غيـروا للمواهب الحسنة (١ كور ١٢، ٣١؛ ١٤، ١)؛ وأن يردّد "حسنة هي الغيرة في الحسنى" (غل ٤، ١٨).

الغيرة الحسنة تلتزم بأمرَين لا تعرفهما الغيرة التي بدون معرفة. الأمر الأوّل هو الوسـائط الطـاهرة، ومن هذه الوسائط أوّلاً الصبر ثمّ بذل الذات، وبعده المسامحة والحوار والاحترام؛ أي أنّها تطيع كلّ الوصايا ولا تستثني أيّة وصيّة من أجل باقي الوصايا؛ إن الوصايا الإلهيّة هي سلسلة واحـدة، حـين نقطـع حلقـة واحدة منها نكون قد قطعناها كلّها. أمّا الأمر الثاني فهو أنّ الغيرة الحقيقيّـة لا تحمـل أحلامـاً غيـر طـاهرة ولا تغار من أجل أمجاد شخصيّة بل من أجل خدمة الرسالة التي تكرّست لأجلها. فليست غيـرةً حـسنة أيّة غيرةٍ مواضيعُها غير حسنة.

إنّ الدّين دعوة للتوبة وليس أداةً للتبرير. لذلك "الغيور" الحقيقيّ هو التائب، وبالتالي هـو المتواضـع وصاحب الـصوت المـنخفض "والمـتكلّم بالـسّلام لجـاره بـالحقّ". هكـذا "يُظهـر الله لنفـسه شـعباً غيـوراً" (تيطس ٢، ١٤). ولهذا يصرخ فينا ملاك الرؤيا: "كنْ غيوراً وتُبْ" (٣، ١٩)، آمين.